صدرت عن دار (المدى)

"إنيس..حبيبة روحي" رواية إيزابيل الليندي الجديدة:

مغامرة الحب والمجد في بلاد بعيدة تنتهي عندها الأرض

ابراهيم حاج عبدي
دمشق

في روايتها الجديدة "إنيس.. حبيبة روحي"، الصادرة بترجمة صالح علماني عن دار المدى (دمشق . ٢٠٠٧) تعود الروائية التشيلية إيزابيل الليندي إلى القرن السادس عشر لتروي حكاية المهاجرين الأوربيين، وخصوصا الأسبان، الذين تركوا بلدانهم وراحوا يتطلعون بشغف نحو المجد والثروة على تضاريس أرض بكر، مكتشفة منذ فترة قريبة: أمريكا، "وهو الاسم الذي أطلقه على تلك البلاد رسام خرائط ألماني تكريما لأمريكو فيسبوشي، الملاح الفلورنسي المتباهي، الذي لم يكن له امتياز الاكتشاف مثلما فعل كريستوف كولومبوس".

كان الأوربيون من إنكليز وبرتغاليين وفرنسيين وأسبان...وسوا هم، يعيشون حياة مملة، كئيبة "فلم يعد هناك مجال لاجتراح مآثر نبيلة في أوربا الفاسدة، الهرمة، الممزقة بالمؤامرات السياسية، ومكائد القصور، ودعوات الهراطقة...". في ظل هذا الإحباط، وما إن شاع خبر اكتشاف القارة الجديدة في العام ١٤٩٢م حتى وجد الكثير من المغامرين الفضوليين أنفسهم في عرض المحيط، أملا في الوصول إلى "بلاد الهند" المليئة بالمفاجآت حيث يمكن للمرء أن يحقق أسطورته الشخصية.

إنيس سواريث، بطلة رواية الليندي، هي واحدة من أولئك المغامرين الحالمين، وقد مرت بتجارب ومخاطر وأهوال تستحق أن تروى قبل نضوب الذاكرة الخصبة. هي الآن، في العام ١٥٨٠م، في السبعين من العمر. تعيش في مدينة سنتياغو دي استريمادورا، وهي سيدة رفيعة المقام، وأرملة النبيل دون رودريغو دي كيروغا الذي بدأ "جنديا إسبانيا باسلا"، ثم اصبح حاكم مملكة تشيلي التي تعني في لغة السكان الأصليين "حيث تنتهي الأرض". عندما وجدت إنيس أن ثمة فائضا من الوقت لديها، وان الذاكرة مثقلة بنصف قرن من الوقائع، والأحداث الأليمة التي شهدت وصول أفواج المهاجرين إلى القارة الجديدة، راحت تروي ذلك لإيزابيل، ابنة زوجها الأخير المتوفى، وهي إذ تفعل ذلك فكأنما تروي تلك الحكايات الخيالية التي ترويها الجدات للأحفاد قبل النوم، لكن ما ترويه هنا هو حكاياتها الحقيقية، وقصة خروجها من إسبانيا، وحكايات عشقها...عبر مزاوجة موفقة بين السيرة الذاتية والوقائع الحقيقية التي جرت في تلك السنوات البعيدة، والليندي تعود خمسة قرون إلى الوراء لتصغي، بدورها، لكلماتها، ثم تدونها على شكل رواية.

تروي إنيس حكايتها بضمير المتكلم، وتسلك خطا تصاعديا بحسب ما تسعفها الذاكرة، "فلا بد لرواية الأخبار من أن تتوالى بالتسلسل الطبيعي للأحداث، حتى لو كانت الذاكرة ركاما مختلطا بلا منطق". تعود إلى طفولتها في أوربا حيث ولدت في العقد الأول من القرن السادس عشر في بلاسينثيا، وهي "مدينة إسبانية حدودية، محاربة ومتدينة". كانت تعمل في التطريز والخياطة، وتصنع الفطائر، وتملك موهبة اكتشاف أماكن المياه الجوفية، وموهبة مماثلة في اكتشاف الرجال الذين يبحثون عن الحب حقا، لا عن نزوات عابرة. تزوجت في العام ١٥٢٦ للمرة الأولى من خوان دي مالغا، وسرعان ما اكتشفت، أن "هذا الزواج كان خطأ". فالزوج اللامبالي كان يتطلع نحو الأرض الجديدة، وقد سافر فعلا إلى هناك، بعد أن نقل عدوى الأحلام إلى شريكته: "من المستحيل تصور اتساع تلك المناطق، وخضرة غاباتها غير المتناهية، ووفرة أنهارها البلورية، وعمق بحيراتها ذات المياه الهادئة، وثراء مناجم الفضة والذهب فيها...بحيث يمكن لأي جندي أن يتحول إلى مالك إقطاعية باتساع مقاطعة إسبانية كاملة". بعد أن استمعت إلى روايات مختلطة، قادمة من تلك الأرض الساحرة، قررت إنيس الرحيل بذريعة البحث عن الزوج الغائب، لكن في أعماقها كان ثمة ما هو أقوى، فلئن تطلع الناس إلى الهجرة بحثا عن الثراء والمجد، فإن إنيس كانت ترى بان هناك ما هو اثمن من كل ذلك: الحرية. "لا أحد هناك يحمل العار لزمن طويل، وحتى اشد الناس مهانة يمكنه أن يرتقي بنفسه". وأخيرا حصلت على الأذن الملكي بالإبحار إلى بلاد الهند بعد مساع استغرقت سنوات، ففي العام ١٥٣٧ حزمت حقائبها الخالية إلا من الأوهام، والآمال الغامضة، وأبحرت، برفقة ابنة أخيها، نحو "الأرض الجديدة" تلبية لنداء خفي قادم من وراء المحيطات.

الفصول الأساسية للرواية تبدأ من هنا، إذ تتناول حكاية الفتح الأوربي للقارة الجديدة، بلسان امرأة عاشت وقائعها بكل صخبها وعنفها ودمويتها. لدى وصولها علمت بموت زوجها في معركة بين الفاتحين الجدد وهنود المابوتشي، لكن القدر كان يخبئ لها مصيرا مختلفا إذ تعرفت في البيرو على المحارب الأسباني بيدرو دي بالديبيا الذي كان منضويا تحت رايات الإمبراطور الإسباني كارلوس الخامس، وينتظر أمرا ملكيا لفتح المناطق الجنوبية بعد أن أخفقت حملة مشابهة في تحقيق هذا الهدف. ستعيش إنيس مع هذا الفارس الشجاع حكاية حب فريدة، أضفت على حياتها، رغم الهم والمشقة، مرحا، وسرورا يصعب العثور عليهما في تلك البلاد الغارقة في العزلة، والقلق. الحب والمجد يجمعان بين دي بالديبيا وإنيس، فيصممان على التوجه نحو الجنوب حيث الأراضي التشيلية الفسيحة التي لم تطأها قدم الفاتحين بعد. تجد الحملة نفسها وسط صحراء قاحلة فسيحة، مرعبة، تمتد بلا انتهاء، وطقس يميل إلى برودة صقيعية أحيانا، أو ترتفع درجات الحرارة إلى حد مميت.

تروي إنيس تفاصيل هذه الحملة المتجهة نحو الجنوب بكثير من الحذر والدراية. إنها تراجيديا إنسانية قاسية، ومريرة، ففي حين بدت الأحلام التي حفزتهم ذات يوم للقيام بهذه المغامرة، أشبه بوهم قاتل: "الأدغال تحول الرجال إلى أوغاد وقتلة. فشواطئ البحر الكاريبي، بمياهها ورمالها البراقة، وأشجار نخيلها الأنيقة، استقبلت الشبان بهدوء مخادع لأنهم ما إن توغلوا في الخضرة الكثيفة حتى أحاطت بهم أدغال كابوسية"، فإن الموت، في المقابل، كان حدثا يوميا مألوفا في تلك البقاع المهجورة والجرداء، وكان الرعب يخترق الأرواح "ففي هذا العالم الحار، المستنقعي والشره الذي تجتاحه الزواحف والحشرات السامة كل شيء يتفسخ بسرعة، وخاصة الروح".

وصلت الحملة إلى مجرى نهر بيو . بيو في تشيلي، وهناك وضعوا الحجارة الأولى لمدينة سنتياغو التي ستغدو عاصمة البلاد، لكن الهدوء الذي كان يسود بين الحين والآخر لم يكن إلا ذلك الهدوء الذي يسبق العاصفة. كانت الاشتباكات والغزوات متواصلة ويومية، والقتلى بالعشرات، وتمارس طرق تعذيب قاسية لا تخطر على بال أحد. إنه زمن النهب والجوع والحرق. والواقع أن الليندي، وبخلاف الكثير من الكتاب والمؤرخين الذين تناولوا تلك الفترات، لا تملك نظرة نمطية مسبقة، تشير، غالبا، إلى همجية الهنود، وتمدن الفاتحين الجدد، بل هي تظهر عيوب الطرفين ومزاياهم دون تحيز، فهي تكتب بصورة حيادية، ومثلما تستفيض في الحديث عن الفاتحين الشجعان، فإنها تكتب، كذلك، عن هنود الكتشوا في البيرو، والمابوتشي في تشيلي "كانوا خيراً منا في نواح أخرى، فهم على سبيل المثال لا يعرفون الجشع، فالذهب والأراضي والألقاب والتشريفات لا تهمهم، وليس لديهم سقف سوى السماء، ولا فراش سوى طحالب الأرض، يمضون أحراراً في الغابة، وشعورهم تتطاير مع الريح". وهي تعترف بان الفاتحين الجدد حاربوا السكان الأصليين بلا رحمة، وقضوا على حضارة الإنكا، التي كانت تملك معارف متقدمة في الفلك، والتقويم الشمسي، والإحصاء، فضلا عن إدارة تنظيم سياسي وعسكري متقن". لكن الهنود كذلك كانوا أصحاب قلوب قاسية، يمارسون طقوسا غريبة، وتروى عنهم حكايات مروعة لعل أكثرها غرابة هي انهم "كانوا يأكلون اللحم البشري".

في ثنايا هذا السرد الحزين، والمؤلم تجد إنيس فسحة للحديث عن قصة الحب التي ربطتها مع دي بالديبيا، ومن بعده كيروغا، "فلا بد من الحب كي نستطيع مواصلة العيش" حسب قولها. كما أن بطلة الليندي ماهرة جدا في الولوج إلى خبايا النفس البشرية إذ تشرح نبلها، ورغباتها، وخستها، وتتألق كذلك في وصف تلك البيئة بكل عناصرها وحيواناتها ونباتاتها وكائناتها الغريبة، وتستعين بمفردات وثقافة الهنود وعاداتهم وطقوسهم وبراءتهم وعفويتهم، وهي تضمن الرواية اقتباسات وحكايات وأقاصيص تأتي على لسان الشخصيات، فتمزج كل ذلك لتصوغ رواية مشوقة، وأليمة في آن.

رواية "إنيس..حبيبة روحي" تعيد إلى الأذهان مناخات تلك الروايات الكلاسيكية والملاحم الإغريقية التراجيدية، وهي مكتوبة بلغة أدبية رفيعة ترتقي في الكثير من فقراتها إلى مصاف اللغة الشعرية الرقيقة إذ تسمو بتفاصيل ومشاهد الحياة اليومية لغويا. وترد خلال أحداث الرواية أسماء المدن والأمكنة والملوك والجزر في مسمياتها الحقيقية كشواهد على حقبة تاريخية عاشتها أمريكا.

الليندي صاحبة "بيت الأرواح"، و"ابنة الحظ"، و"الخطة اللانهائية"، و"الحب والظلال"، و"باولا"... تثبت مجددا في هذه الرواية قدرتها على الروي السلس. تقول الليندي، حفيدة أولئك الفاتحين، عن بطلتها إنيس: "كان من السهل جداً أن أضع نفسي في مكانها وأن أتخيل أنني هي، لدرجة أنه جاءت لحظة شعرت فيها حقاً أنني هذه الفتاة، وأنني لو كنت في مكانها لفعلت ما فعلته هي: كنت سأتبع الرجل الذي عشقته وأبقى إلى جانبه وأدافع عن مدينته، شاهرة سيفي لأحمي ما أسسه وزرعه وشيده"، ومع ذلك تقر الليندي بان البحث التاريخي قد أضناها، ذلك أن كتابة رواية من هذا النوع تتطلب العودة إلى الكثير من المراجع والمصادر التاريخية، فهي تروي أحداثا وقعت فعلا ولا بد من الالتزام بتاريخ الأحداث، والحرص على نقل الواقع الاجتماعي والأخلاقي والثقافي والديني الذي كان سائدا في ذلك الزمن، ورغم أن الرواية لا تدعي التوثيق، لكن في رواية كهذه يجد الكاتب نفسه ينبش في واقع دفن تحت الأنقاض، وحلت محله ثقافة مختلفة لا يكاد يربطها بهذا الفضاء الروائي إلا الشيء اليسير. ومثلما أن إنيس قد أقدمت على مغامرة مجهولة فأخفقت حينا ونجحت أحيانا، فان الليندي كذلك أقدمت بهذه الرواية على مغامرة كتابية، إذ تستعيد زمنا بعيدا بكل تفاصيله، وكأنها عاشته فعلا، لتنجح في صوغ رواية جميلة.

مقطع من سيرة عراقية*:

هنا ترقد الشاكرية.. بلادنا العابرة

سليم مطر
جنيف

يا اصدقائي لعلكم تتفقون معي، بأن بلاد الانسان الاولى هي مرابع طفولته، لأن وعي الطفل لا يدرك من الوجود غير ما يراه بعينيه ويعيشه في حياته اليومية، فبلاده بالنسبة اليه، لا تتعدى حارته او قريته.

انا، كانت(الشاكرية) هي بلادي الاولى، اذ ولدت وعشت فيها حتى سن السابعة. هي مدينة فقيرة نبتت مثل الفطر، في اواسط القرن الماضي، عند اطراف حي بغدادي غني ومعروف اسمه(كرادة مريم). آلاف العوائل نزحت من الجنوب، وبالذات من ريف العمارة، وبنت بيوتها على عجل من طين وتبن وسعف وبواري(حصر قصبية).

لعل ذكرياتي الاولى عن الشاكرية تعود الى سن الرابعة(١٩٦٠). كنا نحن زمرة الاطفال الحفاة، في طريقنا الى ضفاف دجلة(الشط)، نضطر الى إجتياز منطقة (كرادة مريم) المحاذية، بوجل وعجل، كما يجتاز الكبار حدود البلدان الاجنبية. كنا نشعر بأننا نجتاز بلاداً اخرى، بقصورها الفارهة وكنيسة الأرمن الكبيرة الخلابة وسياراتها النظيفة، ورجالها مدنية تقدمية افندية بثياب عصرية، ونسائها سافرات انيقات بيضاوات حمراوات صفراوات مثل حوريات الجنة. يختلفون عن أهالينا الشركاوية(من جنوب شرق العراق) التعبانين، وآبائنا المعكلين (لابسي العقال) المتخلفين،وامهاتنا اللواتي مهما كن جميلات او بيضاوات فأنهن يبدون بعيوننا ملحات كالحات شاحبات لأنهن مبقعات بحزن وفقر وسواد. وعندما سألت اخي الاكبر(قيس) عن سر البشرة الرقيقة البيضاء التي يتميز بها هؤلاء المدنية، قال لأنهم يغسلون يومياً بالحليب. فعاهدت نفسي، عندما اكبر وتصير عندي فلوس، سأغسل يوميا بالحليب. وكم اصبت بالخيبة عندما بلغت اوربا فوجدت الناس، على العكس، يدفعون الفلوس لكي تكتسب بشرتهم الاسمرار بأشعة شمس طبيعية وصناعية! كنا نحن اطفال(الشاكرية) نقتنص فترات الظهيرة حين يهجع ابناء (كرادة مريم) الى قصورهم، لكي نجتاز بلادهم بسرية وخوف ونحن حفاة راكضين، بحثا عن ضفاف دجلة. نجتمع تحت (جسر الجمهورية) في المكان الذي تحول فيما بعد الى وزارة التخطيط، ونطلق الصرخات لكي يرجع لنا صداها، ونقذف طيور الماء بالحجارة، ونتسلق اعمدة الاسس العملاقة، ونبحث في المزابل عن لقى نادرة تخلى عنها الاغنياء سهوا، فنعثر على دكم(ازرار) مذهبة تضعها امهاتنا في ثيابنا المرقعة، وادوية طيبة المذاق نشربها ونأكلها كقطع حلوى، وجنين طفل نغل(لقيط) بعناه بخمسين فلسا لساحرة عوراء تصنع منه تعاويذ اخصاب لعذارى في ليلة عرسهن.

كنت عموما منسجما مع حياتي في (الشاكرية) بلادي الصغيرة. كنا جميعا نتشابه في حياتنا، ولم اشعر بأني انا وعائلتي كنا بائسين، لأني كنت اشاهد الجميع يعيشون البؤس نفسه، ولهذا لم اعرف انه كان بؤسا. كنا جميعا نسكن في بيوت من طين يصنعها اهلنا امامنا من نفس الارض التي نسكن عليها، وقد شاركت ابي بضع مرات في اعداد خميرة الطين والتبن من اجل تعمير حوشنا (بيتنا) وتصليحه. كان حوشنا يتكون من حجرتين، واحدة تقوم بمهمة مخزن اغراض ومطبخ وحمام ومنام اختي الكبيرة ليلى وحبوبتي (جدتي)روبية حينما تزورنا بعد تجوالها على بناتها الثلاث عماتي الشهيرات (نوعية وصبرية ومكية). اما الحجرة الثانية فكانت لحياتنا كلها ليلا ونهارا، نعيش فيها وننام جميعا، امي وابي على جرباية(سرير) في طرف الحجرة، ونحن الاخوة الخمسة ننام على الارض فوق بساط واحد وغطاء واحد.

نحن اطفال الشاكرية كنا جميعا نحمل في ابداننا النحيفة اكواماً من امراض العالم الثالث: البلهارزيا والملاريا والتيفوئيد، وامراض عابرة تحل فينا وترحل عنا دون ان ندري بها. اصابتني جميع هذه الامراض، واجتزتها بنجاح باهر. وعندما كان يستعصي شفاؤنا، تأخذنا أمهاتنا الى(الامام الكاظم) لكي يلف السيد على معاصمنا علك (خيطا)اخضر من راية الامام الحسين، لكي يحمينا ويشفينا.

١٣ طفلاً.. وقلق الموت

وكان عزرائيل ملاك الموت يأتينا ضيفا عاديا بين حين وآخر، فكانت امهاتنا ينجبن الاطفال في كل عام مثل البزازين(القطط)، ومثل البزازين ايضا كان يموت الكثير منهم. امي انجبت (١٣) طفلا، مات منهم خمسة، عدا الكثيرين الذين اسقطوا قبل الاكتمال، وبقينا نحن الثمانية: ليلى وقيس وراضي وانا الاصغر حينذاك، قبل ان يأتي فيما بعد اخوتي الاربعة، احلام وطارق وليث ثم بعد سنوات طويلة وقد تجاوز عمر ابي السبعين اتانا بزر الكعدة(آخر العنقود) اخي قائد. وقد شاهدت بعيني لاول مرة في حياتي وانا في سن الخامسة موت اختي الرضيعة(انعام) الجميلة التي كنت الاعبها بمحبة بديلا عن دمية لم احصل عليها. قد يكون (قلق الموت) الذي رافقني طيلة حياتي، قد بدأ عندما شاهدت امي تمرغ نفسها في التراب وتطلق نحيبها الذي يفطر القلب واختي ليلى تحتضن انعام. ثم مشهد ابي يبكي وهو يحمل الرضيعة مكفنة بين يديه محاطا بأبناء الحارة وعويل امي واختي، ليدفنها بعد سكة القطار في (مقبرة مريم) عند الجتة (مزرعة الجت). حتى الآن وانا في جنيف يخيل لي احيانا رؤية ملامحها الرقيقة الطيبة في وجوه بعض الصغيرات.

وعندما كنا ننجو من تلك الامراض، كان ملاك الموت يجذبنا الى اماكن عديدة كثيرة لكي يقبض ارواحنا: مستنقعات المياه الآسن التي كنا نسبح بها مع الكلاب والجواميس، والشاحنات والقطارات المارقة، كذلك في نهر دجلة القريب. حتى الآن وسوف تظل الى الابد صورة(ام فلاح) تلك الام الجنوبية ذات العيون الزرق وهي تعول وتبكي بحثا عن جثة ابنها(صلاح) الذي ابتلعه النهر. صديقي (صلاح) ذلك الطفل الابيضاني الجميل. كنا في الصباح قد تسللنا خفية بعيدا عن عيون امهاتنا الى الشط. نبحث عما يجلبه لنا النهر من حاجات طافية. فجأة انتبهنا الى صلاح وهو يستغيث بنا، ولا احد يعرف كيف انزلق في النهر. كنا مندهشين متجمدين لا نعرف ماذا نفعل، ونحن نشاهدالخوارة (دوامة الماء) تبتلع صديقنا صلاح. بقينا نبكي ونستغيث بالله والناس حتى غاب عنا صلاح الى الابد. بقيت(ام فلاح) تجول هائمة عند ضفاف النهر لايام وايام تنادي ولدها المفقود، حتى تمكن غواص من العثور على جثته في زاوية من النهر.

كان آباؤنا يذهبون صباحا الى اعمالهم، شرطة وفراشون ومنظفون وبناؤون، كذلك عسكر يموتون في حروب تحدث في اماكن مجهولة بعيدة. وكنت اسمعهم احيانا حينما تأتي جثة عسكري قتيل، يرددون اهزوجة شائعة: طركاعة لفت برزان، بيس بأهل العمارة.(مصيبة تقع على برزان، قسى على اهل العمارة). وكان من الطبيعي جدا ان يتقاتل آباؤنا فيما بينهم، فنسمع كل ليلة اطلاقات نارية، قد تكون لطرد اللصوص او لاغتيال شخص ما.

النضال السري.. عشائرياً

رغم المحبة والتعاطف والتعاضد بين الناس، هنالك ايضا خوف وحذر. فأول شيء تعلمته مما يسمى بـ(النضال السري)، عندما اخبرني اهلي بأن اخفي سر انتمائنا الى عشيرة(الحلاف)، لأن في ذلك خطراً علينا. فعشيرتنا المنتشرة في جنوب العراق، هي مثل كل عشائر الوطن لها ثارات معروفة ومجهولة. ففي الشاكرية، كثيرا ما كان يحدث ان يتم اغتيال شخص ما لمجرد انتمائه للعشيرة الفلانية، لأن احد ابناء عشيرته قد ارتكب جريمة ضد احد ابناء عشيرة اخرى تقطن في الجنوب.

نحن اطفال الشاكرية، كنا جميعا نجتمع مع امهاتنا عند حنفية الماء الوحيدة التي تتغذى على مائها مئات العوائل. نغسل الابدان والثياب والاواني قرب الحنفية. وكنا ايضا جميعا نجتمع عند سكة حديد خط البصرة، لكي نلوح بأيادينا الى ركاب القطارات المارقة، ونضع قطعة الفلس الاحمر على السكة، لكي تتمدد وتكبر بعد مرور القطار عليها. ونتبادل الاتصالات عبر بوريات (انابيب)النفط العملاقة التي يعادل قطرها حجم طفل، والممتدة على طول السكة. وحينما كنا نمل، كنا نضع التبن والبيض على السكة آملين ان ينزلق القطار. لكن القطار كان ابدا لا ينزلق، ونحن لا نفقد الامل، فكنا نعود لسرقة البيض والتبن لنضعه على السكة، وحينما يمرق القطار نغمض عيوننا واكفنا على قلوبنا الهلعة وننطوي على ابداننا المقشعرة من خوف وترقب ونطلق صرخات نشوة جنونية تمتزج بهدير وصرير القطار المارق، ونحن ندعو الله ان ننقذه هذه المرة ايضا، فنفرح عندما نكتشف انه قد استجاب لدعواتنا.

اعياد.. واعياد

نعم يا اصدقائي، الشاكرية جذوري وطفولتي وبلادي الاولى، وكثيرا ما يحدث وانا في عمري الحالي، ان اهرب الى ذكرياتها عندما اشاهد تعلق الآخرين بأوطانهم. منذ فترة، كنت اتمشى عصرا في ازقة مدينة(جنيف) القديمة، فوجدت نفسي امام موكب كبير لمحتفلين بأحد الاعياد الوطنية، كباراً وصغاراً مبتهجين صارخين وسط غناء وموسيقى عسكرية. ثمة شمس غاربة وعتمة شرعت تتخلل الازقة، وعبقت في الجو رائحة مساء، فشعرت فجأة برعشة خفيفة من كآبة وقلق، وعادت لي مثل حلم باهت ذكرى بعيدة يوم تهت في الشاكرية. ربما في الرابعة من عمري، كنت مع (سكينة) ابنة عمتي التي بعمري، وجدنا انفسنا ذات عصرية نسير خلف (موكب عزاء الشاكرية). نركض وراء الحشود ونهزج معهم بنداءات عاشوراء ونضرب صدورنا مع قرع الطبول (وا حسيناه.. وا شهيداه..) دون ان نفهم بالضبط من هو المقصود، معتقدين بأنه احد شيوخ عشائر الشاكرية. انتبهنا لانفسنا تائهين وسط الازقة المجهولة والظلام الذي خيم. تهيأ لنا بأننا تهنا في عالم آخر غريب وخطر وليس ثمة امل بالعثور على اهالينا. رحنا نبكي ونستغيث بالله واولاد الحلال بحثا عن المنقذ. لكن الناس كانوا يتغاضون عنا معتقدين بأننا نبكي على الحسين. ولم يصدقونا الا بعد ان راحت(سكينة) تتمرغ على الارض صارخة بالله والاهل. اغاثنا الناس وحملونا الى اهالينا. مازالت حتى الآن ثمة أحاسيس قلق من ضياع تأتيني في المواقف المشابهة.

كنا منسجمين تماما مع حياتنا، لأننا كنا نعرف كيف ننتقم من بؤسنا. نتقبل بكل طيبة عقوبات امهاتنا اللواتي بعد ان يتعبن من ضربنا بنعلهن البلاستيكية السوداء، يشكين الى آبائنا لكي يكملوا حفلات الرعب بعد عودتهم مساءا. وعندما يتراكم الغيظ فينا، كنا نبحث عن اية وسيلة لتفريغه. كنا مثل جميع اطفال الارض نعشق الحيوانات.. حتى الموت! وكنا نطبق على اصدقائنا الكلاب والقطط، ذلك المثل المعروف(من الحب ما قتل). اكتشفنا تسلية رائعة. كنا نغافل اهالينا وننصب طشوت الغسيل كشراك للقطط. نصطادها ونشرع بكل براءة ورقة طفولية بتعذيبها وتكسير اطرافها بالهيم الحديدي(المكسار) ونحن نتصارخ بعبث ونتضاحك ببراءة وفرح لا يمتلكها حتى غلمان الجنة. وكنا نكمل طقوسنا الجهنمية هذه بالهجوم على الكلاب، نحيطها من كل جانب، ننهال عليها بالحجارة والعصي وهي تنبح وتعول مستغيثة بآلهتها الخاصة بها التي لم تكن اقل منها حيوانية وسخرية، حسب اعتقادنا. كنا ندفعها ونحن نتضاحك ببراءة الى مستنقعات مياه الأمطار الآسنة التي سبق وان غرق فيها الكثيرين منا.

بعد ان نفرغ من جنوننا البدائي، نعود الى اهالينا الغاضبين من قسوتنا والمعتذرين لله عن جرائمنا التي لا تغتفر، لكي نتعرض لعقوبات بدنية قبل النوم، وعقوبات روحية اثناء النوم على شكل كوابيس رعب تفترسنا خلالها مرات ومرات تلك القطط والكلاب التي عذبناها وغدرنا بها.

حينما اتذكر حكايتي مع القطط، احس بالعار لأني كنت ناكرا للجميل لجنس القطط الذي انقذني من موت محقق. لا ادري إن كنت اتذكر حقا تلك الحكاية، وهذا امر غير معقول، ام اني سمعتهم يحكونها لي فانطبعت في ذاكرتي: كنت راقدا في الكاروك(المهد) واذا بثعبان يتجاوز طوله ذراع، ابيض مرقط، يزحف على عمود محاذ. وفي اللحظة التي كاد فيها يبلغني واذا بقط يهجم عليه وينهشه، وقد هبت امي وجدتي على صوت بكائي.

الغريب ان قسوتي الوحشية هذه ضد الحيوانات، لم تترك في نفسي غير اثر معاكس تماما. اصبحت فيما بعد وحتى الآن، بالغ الرقة والحساسية، بحيث اني لا اتحمل مشهد عنف ودم حتى في الصور والسينما. هنا في جنيف، كم من مرات تركت قاعة السينما وسط العرض بعد إن فوجئت بمشاهد عنف ودم تتخلل الفلم. وعندما اجلس احيانا للتبرع بالدم، اغمض عيني تجنبا لرؤية الابرة وهي تسحب دمي. لعل حساسيتي هذه تعود اساسا الى اني انا شخصيا كنت مثل تلك القطط، عانيت ايضا من عنف وقسوة من الكبار. كذلك شاهدت بعيني فيما بعد، كيف يعذب الرجال في سجون دائرة الامن، إذ مازالت اصوات المعتقلين الشاكية الباكية الطالبة للرحمة تصدح في روحي ممتزجة بصراخ ضحايا طفولتي من كلاب وقطط!

ولادة العلوية

في الشاكرية شاهدت لأول مرة إمرأة تنجب. لم تكن أمي، رغم انها انجبت بعدي العديد من الاطفال. بل جارتنا (العلوية العميا) وهي شابة عمياء رقيقة حلوة بيضاء، ومن سلالة الامام علي. ذات صباح ونحن نلعب في الزقاق، دون ان نهتم بضجيج وزحام اهالينا حولنا، واذا فجأة ينطلق صراخ من بيت(العلوية)، فركضنا نحن الاطفال خائفين منتظرين كارثة ما، واذا بالكبار يقفون بوجهنا ويمنعوننا من دخول الغرفة التي تجمعت النساء داخلها وعند بابها. لا ادري كيف تمكنت من مغافلة الحارسات وصعدت الى الرازونة(النافذة) ورحت اتمعن بذلك المنظر الذي لم اشاهد مثيله من قبل ولا من بعد. حتى هنا في جنيف عندما اجبروني في المستشفى عام ١٩٩٠، حسب التقليد الحديث، على ان احضر عملية انجاب زوجتي (ماركريت) لولدي(باسم)، اغمضت عيني وانا اقف جنب زوجتي امسك كفها وكتفها واستحثها على الشجاعة والصبر وهي تصرخ من الوجع. لكني في ذلك اليوم في الشاكرية كنت فاتحا عيني لأقصى ما يمكن، فرأيت القابلة (ام جاسم) تخرج جنينا من من العلوية العمياء. كنت على يقين من انها كانت دمية صغيرة، لم افهم ابدا لماذا كانت مخبأة في داخل العلوية. زاد عجبي عندما رأيت الحجية تمسك الدمية من قدميها وتضربها عدة ضربات على ظهرها فتنطلق بصرخات مثل طفل حقيقي! وقبل ان افهم ما يحصل، واذا بي اشعر بقبضة جبارة تمسكني من ثوبي وترفعني بحيث يتدلى رأسي نحو الارض واقدامي فوق. وانا في حيرتي والارض تدور احسست بصفعات خفيفة على ظهري ولعنات ابي، فانطلق من حنجرتي عويل صارخ امتزج بعويل الجنين الذي رأيته يخرج من العلوية.

في الشاكرية عرفت لاول مرة السينما، ربما عام ١٩٦١, حتى الآن اتخيل مشهدي في اول يوم العيد مع اخي وابي اختال فرحا فوق جسر الجمهورية لأني ارتدي بدلة ملوكية زرقاء كلها زراكش ونجوم مذهبة. سمعتهم يقولون انها على نمط بدلة الملك غازي، قد حصل عليها ابي منذ سنوات طويلة من عطايا احد الاغنياء، وقد ارتداها اخوتي قبلي في العيد عندما كانوا بحجمي. اتذكر جيدا كيف اني جلست في حضن ابي في سينما ميامي قرب ميدان الباب الشرقي، لأشاهد لاول مرة في حياتي فلم (طرزان في الغابة).

مدرسة وتلفزيون

في الشاكرية كذلك عرفت لأول مرة المدرسة. في عمر السادسة سجلوني في مدرسة(كرادة مريم). اصابني الرعب عندما تركتني امي ورحلت. احسست كأني وحش غاب تركوه وسط زحام مدينة عامرة. ارهبني مشهد هذه الجموع العظيمة من فتيان يتراكضون ويتصارعون ويتمازحون في باحة المدرسة. رحت ابكي واردت العودة الى بيتي وحارتي واصحابي. لكن رؤيتي لابتسامة الاستاذ (ادور) الحنونة المرتسمة على وجهه الجميل، وصوته الدافئ قد هدأ من روعي وبعث الطمأنينة في روحي. كان اخي راضي في نفس المدرسة ولكنه في الدوام الآخر. رغم انه يكبرني بعامين لكني كنت اضاهيه في حجمه، لهذا كنا نلبس نفس الثياب، فكنت انتظره في الطريق لكي يعطيني البنطلون ويأخذ دشداشتي، او العكس. لا ادري بعد كم من الايام، اصبت بحادث في قدمي عندما كنت راكبا الدراجة(البايسكل) خلف اخي قيس. كان هذا الحادث حجة لكي اتمارض واقنع اهلي بترك المدرسة ذلك العام.

في الشاكرية اكتشفت التلفزيون، عند جيراننا(بيت ام فلاح). كنا بين حين وآخر نذهب عندهم لنشاهد برنامج(قرقوز) تلك الدمية المضحكة التي تخاطب الاطفال. لكن الذكريات الاولى للتلفزيون ارتبطت بذلك المشهد الذي بقي حيا في ذاكرتي.

موت الزعيم

ذات ليلة من شتاء ١٩٦٣ صحوت على ضجيج اهلي واناس الحارة ودوي اطلاقات تصدح في السماء. كانوا يتراكضون فتبعتهم الى بيت(ام فلاح). لا ادري كم الناس، عشرات او مئات مجتمعين حول التلفزيون. بعد ملحة وصعوبة سحبتني اختي ليلى لكي اتمكن من رؤية ذلك المشهد الذي جعلهم ينحبون الما وحزنا: ثمة رجل بقميص عسكري جالس على كرسي ورأسه منكس والدم ينزف منه. واذا برجل واقف يقبض على شعره ويرفع رأسه لنكتشف انه كان ميتا. بلغ المشهد ذروته عندما رأينا الرجل الواقف يبصق بوجه الرجل الميت. قالوا انه الزعيم عبد الكريم قاسم الذي اطاح به البعثيون وجلبوا جثته الى التلفزيون ليكشفوها الى الناس. كم بدت لي واضحة ملامح ذلك الزعيم وعيناه المغمضتان ووجهه الذي ظل رغم الموت محتفظا بأبتسامة طيبة.

نحن اهل الشاكرية لم نصدق موت الزعيم. قلنا ليس هو الذي ظهر في التلفزيون بل ممثل يشبهه. اما زعيمنا الحقيقي، فقد رحل الى القمر(كما كان يقول اسلافنا العراقيون القدماء عند موت تموز اله الخصب الذكوري كل عام). فبقينا ننتظر بشوق اكتمال البدر لكي نمضي الليل ونحن نفتش فيه عن وجه الزعيم. صدقوني اني شاهدت بعيني وجه الزعيم على سطح القمر، لكني خفت ان ابوح للناس بذلك، لأنه كان ذات الوجه الجريح الميت المبتسم ذاته الذي شاهدته في التلفزيون!

حتى الآن وانا في جنيف، انتظر ليلة اكتمال البدر لكي اخرج وحيدا الى شاطئ البحيرة أتأمل وهجه في السماء وانعكاسه في الماء. دون ان ادري ارى ملامح الزعيم ترتسم على سطح القمر، وهو لم يزل جريحا يبتسم، فاتلفت حولي بحثا عن اهلي واناس الشاكرية، فلا اجد غير صمت وعتمة.

ذكريات اخرى

ذكريات وذكريات لا تحصى مازالت حية في روحي عن الشاكرية:

اتذكر عندما تمكن حرامي(لص) من التسلل ليلا الى حجرة حبوبتي وسرق الـ(٢٠) دينارا التي كانت هي كل ثروة ابي، مع ماكنة الخياطة التي كانت تستعملها اختي لخياطة دشاديشنا(ثيابنا).

اتذكر عندما كاد اخي راضي يغرق في حوض الساقية الواقعة بعد السكة، وانقذته اختي ليلى، ثم اصيب بالتيفوئيد وقال عنه الطبيب انه لن يعيش حتى يوم غد، لكنه ظل حيا حتى الآن!

واتذكر بيت(زهرة الحواس) تلك الفلاحة القاسية التي تقطن في مزرعة الجت، والتي قيل عنها انها قتلت ابنتها ودفنتها سرا، بعد ان علمت انها كانت حاملاً سفاحا.

واتذكر بيت اهل النكرة(اهل الحفرة)، الذين مثل سكان الاهوار، بنوا بيتهم وسط (الحفرة) ذلك المستنقع الآسن وتركوا جواميسهم تعيش في الماء حولهم.

اتذكر نفسي اول طفولتي ببدن سمين ووجه منتفخ مثل اهل الصين، وانا ارقص في مزرعة الجت على تصفيق اخوتي وغنائهم لي: بديبود يرقص بالجتة.. بديبود يرقص بالجتة..

ذكريات الشاكرية لا تنتهي، فهي مرابع طفولتي وبلادي الاولى..

اواه يا اصدقائي لو تعرفون كم انا مشتاق لها، لاطفالها الحفاة واهلها الطيبين القساة، واحواشها الطينية ومزرعة جتها الخضراء ومستنقعاتها العفنة وسكة حديدها وانابيب نفطها وضفاف دجلتها، وكل ذكرياتها، النيرة منها والمظلمة. لكنها يا للحسرة، رحلت واندثرت مثل مدن عالم قديم غيبها الله في اعماق الارض. مهما فتشتم عنها لن تعثروا عليها في خارطة ولا في اية بقعة من انحاء العراق. مع ذلك هي ليست من نسج خيال، بل هي مدينة عابرة كونها اناس عابرون.

عندما زرت بلادي عام ٢٠٠٣ بعد غياب اعوام واعوام، ذهبت لرؤية الشاكرية، او قل لذكراها، لأني اعرف ان الحكومة قد امرت بهدم بيوتها وترحيل اهلها منذ اوائل الستينات عندما وزع الزعيم عبد الكريم على سكانها اراضي (مدينة الثورة) مشترطا ان يبنوا بيوتهم من طابوق. وكانت عائلتنا آخر المقاومين، حيث صمدنا حتى نهاية عام ١٩٦٣ .

قلت لعلي اعثر على بقايا مندثرة واشاهد ذكريات منسية، او في الاقل امشي على ارضها واضع الفلوس والبيض والتبن على سكة حديدها، وابعث اشارت محبة لاصدقائي الذين غابوا عبر انابيب نفطها، واصلي لأله الكون في كنيسة ارمنها.. لكن الصدمة كانت بأنتظاري، عندما لم اتمكن حتى من الاقتراب منها، لأنها كانت محاطة بأسوار وحواجز حربية مدججة بسلاح وحراس. منذ ايام صدام، المنطقة بأكملها اصبحت جزءا من مقر القيادة القومية لحزب البعث والقصر الجمهوري. وبعد الاحتلال اصبحت جزءا من المنطقة الخضراء، مقر الامريكان واتباعهم.

نعم يا اصدقائي، بلادي الشاكرية صارت أرضاً حراماً اسطورية لا تستطيع بلوغها الا تلك الكائنات المختارة المدججة بسلاح وقوانين عليا.

احيانا يخطر في بالي امر خيالي طريف، لا ادري هل اعيش حتى اليوم الذي اراه يتحقق فيه. ان نبادر نحن بعض ابناء الشاكرية، باختيار اية بقعة صغيرة من ارض الشاكرية القديمة، ونضع فيها نصبا تذكاريا، عبارة عن حوش طيني من تلك الحقبة، ونكتب عليه: هنا ترقد الشاكرية.. بلادنا العابرة.

* هذا مقطع من كتاب سيرة ذاتية في طور الاعداد